مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn : 2572- 0058 / E- Issn : 2676 - 1696
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485
المجلد:09 العدد: 02 جوان 2025 ص260 / 271

الحركة الاصلاحية في الجزائر تحديات ومصاعب – ابن باديس أنموذجا –

The Reform Movement in Algeria: Challenges and Difficulties - Ibn Badis as a Model -

مختار عبد الصمد*	عبد السلام عبد الحفيظي
المدرسة العليا للأساتذة بالأغواط (الجزائر)	المدرسة العليا للأساتذة بالأغواط (الجزائر)
a.mokhtar@ens-lagh.dz	Abdelhafidiabdesalam60@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2024/11/27
تاريخ القبول: 2024/12/19

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الحركة الإصلاحية
- ✓ الاستلاب
- ✓ الهوية

الملخص:

يستعرض هذا البحث دور الشيخ عبد الحميد بن باديس في الحركة الإصلاحية الجزائرية التي ظهرت في مواجهة الاستعمار الفرنسي، حيث كان بن باديس شخصية محورية في الحفاظ على الهوية الجزائرية، في مواجهة الاستلاب الثقافي الفرنسي، و تمحورت جهوده حول إنشاء مدارس لإحياء اللغة العربية وبث القيم الإسلامية، كبديل للنظام التعليمي الفرنسي.

ورغم التحديات التي واجهته، بما في ذلك قمع السلطات الاستعمارية للمؤسسات التعليمية، استمر بن باديس في عمله من خلال تنظيم الجمعيات الثقافية والمجلات لرفع الوعي الوطني،

ولعبت حركته دورًا حاسمًا في تطوير الإحساس بالوطنية الجزائرية، وشحذ الهمم لمقاومة الاستعمار الفرنسي لنيل الاستقلال، حيث اعتبرت الحركة الإصلاحية التي قادها حجر الزاوية في تأسيس الهوية الجزائرية الحديثة.

Article info

Received *27/11/2024*
Accepted *19/12/2024*

Keywords:

Abstract :

This research examines the role of Sheikh Abdelhamid Ben Badis in the Algerian reformist movement that emerged in response to French colonialism. Ben Badis was a pivotal figure in preserving Algerian identity. confronting French cultural assimilation. His efforts focused on establishing schools to revive the Arabic language and instill Islamic values as an alternative to the French educational system.

• المؤلف المرسل

Despite the numerous challenges he faced. including the suppression of educational institutions by colonial authorities. Ben Badis continued his work by organizing cultural associations and magazines to raise national awareness.

- ✓ *Reformist Movement*
- ✓ *alienation*
- ✓ *Identity*

1. مقدمة

شهدت الجزائر خلال حقبة الاستعمار الفرنسي واحدة من أحلك فترات تاريخها حيث سعت الإدارة الاستعمارية إلى طمس الهوية الوطنية والثقافية للشعب الجزائري، ولم تكتف بالقتل والتشريد والتشنيع بل تعدتها الى جريمة أفظع تمثلت في فصل هذا الشعب عن هويته الوطنية والثقافية, من خلال مشاريع مدروسة كفرض اللغة الفرنسية، وتقييد التعليم الديني، وإضعاف الهوية الإسلامية.

في هذا الفترة العصيبة من تاريخ الجزائر ، انبرى رجال وهبو حياتهم رخيصة فداء للوطن , ومن أبرز هؤلاء الرجال الشيخ عبد الحميد بن باديس، حيث حمل مسؤولية إحياء الهوية الجزائرية من خلال التعليم وتوعية الشعب بخطر الاستدمار من خلال حركته الإصلاحية، فقدم رؤية متكاملة لمقاومة الهيمنة الثقافية الفرنسية، معتمداً على الهوية الإسلامية والعربية كقاعدة أساسية.

لكن مشروع ابن باديس لم يكن خالياً من التحديات؛ فقد واجه ثلاث عقبات رئيسية:

- التحديات العائلية: كونه من أسرة عريقة ذات مكانة مرموقة، ارتبطت بعض أفرادها بالمؤسسات الإدارية التقليدية قبل وأثناء الاحتلال، ومدى تأثير شكّل ذلك على مسيرته.

- التحديات الدينية : تمثلت في مواجهة بعض الطرق الصوفية التي كانت تهيمن على الحياة الدينية والاجتماعية في الجزائر، والمشكوك في انقيادها للإدارة الفرنسية.

- التحديات السياسية: التي تمثلت في السياسات الفرنسية التي استهدفت القضاء على كل جهد إصلاحي وحاولت طمس الهوية الجزائرية.

انطلاقاً من هذه التحديات، وجدنا أنفسنا امام اشكالية رئيسية مفادها: كيف استطاع عبد الحميد بن باديس مواجهة هذه العقبات العائلية والدينية والسياسية؟ وما هي الاستراتيجيات التي وظفها لإنجاح مشروعه الإصلاحي رغم الضغوط الهائلة؟

للإجابة عن هذه الإشكالية، تناولنا أسئلة فرعية تمثلت في:

- كيف أثرت خلفية ابن باديس الأرستقراطية على مسيرته الإصلاحية؟ وما مدى تفهم أسرته لما يخطط له; في ظل ارتباط بعض أفرادها بالمؤسسات التقليدية؟.

-كيف واجه ابن باديس الطرق الصوفية التي بسطت هيمنتها على المجتمع الجزائري، خاصة تلك التي سارت في فلك الاستعمار؟

- ما الاستراتيجيات التي اعتمدها ابن باديس لمواجهة محاولات فرنسا طمس الهوية الإسلامية والعربية؟

- ما طبيعة علاقة ابن باديس بالحركات الوطنية الأخرى؟ وكيف استطاع الموازنة بين الإصلاح الديني والعمل الوطني؟

من خلال هذه الأسئلة، يسعى هذا البحث إلى تقديم رؤية شاملة لمسار ابن باديس الإصلاحي، والتحديات التي واجهها، انطلاقا من مدى تأثير أفكاره الإصلاحية على مكانة أسرته ذات الصيت العريق في الوسط الجزائري ثم عرجنا على التحديات الدينية متمثلة في الطرقية خصوصا ذات الولاء للإدارة الفرنسية منها, وصولا إلى الاستعمار باعتباره الحلقة الأقوى في فرض الهيمنة بكل أشكالها , من خلال التقصي في هذه الأمور سلطنا الضوء على الشيخ ابن باديس كيف جابه هذه التحديات وكيف حولها إلى فرص لبناء هوية وطنية متماسكة قاومت المحاولات الدؤوبة للاستدمار في محو الشخصية الجزائرية.

2. ابن باديس: الامتحان الأسري

اختار عبد الحميد بن باديس مسارًا مغايرًا عن الطريق الذي سارت عليه عائلته، وهو طريق كان سيقوده حتمًا إلى الابتعاد عن تقاليد الأسرة التي كانت دائمًا على صلة وثيقة بالدولة فالعائلة الباديسية كانت تعد أبناءها للمناصب الرسمية وتصدر المشهد العام.

لم تحد العائلة عن مبدئها ودورها الرئيس حتى أثناء الاحتلال، حيث لعبت هذه الأسرة دورًا مهمًا في الإدارة المحلية بقسنطينة نذكر من ذلك تمثيلا لا حصرا، تعيين عمه المكي بن باديس عام 1869 ضمن لجنة أهلية ثلاثية مع ابن بريهمات من العاصمة وابن القاضي من وهران، فكلفت هذه اللجنة بتقديم تقرير للحكومة الفرنسية عن أوضاع الجزائر، وهو ما يظهر المكانة الرفيعة التي كانت تتمتع بها الأسرة أثناء الاحتلال, " كما أن انتماءه إلى أسرة عريقة وموالية للفرنسيين جعلته في شبه حصانة من الإدارة الاستعمارية, بالإضافة إلى كونه من قسنطينة, وهي عاصمة كبيرة, وكان له فيها مؤيدون ومناصرون إذا خانه الآخرون, ومفاخرة إذا اقتضى الأمر ذلك" (بو الصفصاف، 2009،ص92).

لكن باتباع ابن باديس طريق الإصلاح، كان يختار وجهة مختلفة تمامًا عن تلك التي كانت تتماشى مع مصالح الإدارة الاستعمارية، فقد كان يسعى إلى إحياء الأمة، وإيقاظها من سباتها الطويل، وإعادة بنائها بعد ما أصابها من دمار على مستوى الدين والوطن، في المقابل كانت الإدارة الاستعمارية تهدف إلى محو ما تبقى من الشعور الديني والوعي الوطني، بهدف الاستحواذ الكامل على البلاد وثرواتها: "سيكون ابن باديس على موعد مع عناء ذاتي فادح، إذ سيكون عليه أن يقبل الانعطاف بالأسرة والسير بها عن رضى أو كراهية على طريق مساجلة المستعمر ومعارضة الإدارة ومقاومة الأوضاع المُذلهمَّة التي كان الاستيطان ومخططاته العدوانية وثقافته العنصرية الباغية تصعد منها باطراد، خلقا للجماهير المسلمة وقضاء على وجودها " (عشراتي، 2010،ج1،ص203).

كان على ابن باديس، الذي ينتمي إلى أسرة عريقة شاركت تاريخيًا في إدارة الشأن العام تحت حماية الدولة والسلطان، أن يتحرر من القيود التاريخية والوظيفية التي ورثها، وأن يتخذ لنفسه مسارًا مختلفًا عن المسار التقليدي الذي رسخته أسرته. فاختار الوقوف إلى جانب الفقراء والمحتاجين والجهلاء، الذين أرهقهم المستعمر بالظلم والقهر. سواء اعتبرنا أن الاحتلال أثّر في المجتمع بكافة طبقاته، حتى تلك الفئات التي تعاونت مع العدو، مما تسبب في تدهور الحياة الروحية والاجتماعية والقيمية في الجزائر، وأثّر بشكل مباشر على وعي الفرد الجزائري وكرامته. أو رأينا أن المستعمر كان يسعى

بشكل متعمد إلى إهانة النخب الثقافية والرموز الاجتماعية الجزائرية، من خلال وسائل مثل النهب والابتزاز الربوي بهدف تقليص نفوذهم وإضعاف مكانتهم.

منذ العقود الأولى للاحتلال، بدأت الأسر الجزائرية ذات الحسب والنسب تشعر بالخطر الداهم وتدرك أنها لم تعد محصنة من بطش المستعمر.

وعلى الرغم من محاولات الجزائريين للوقوف صفاً واحداً لمعارضة الإجراءات الاستعمارية، إلا أن تلك الجهود لم تُفلح في لفت انتباه المستعمر أو إحساسه بقوتهم. بل إن الموقف اللامبالي للمستعمر دفعهم إلى الاعتراف بأنهم لا يملكون القدرة على مواجهة الآلة الاستعمارية. وهكذا، بدأت فكرة الهجرة كوسيلة للحفاظ على الكرامة تنتشر بين الجزائريين، حيث شهدت البلاد موجة جديدة من الهجرة مع بداية القرن العشرين، خاصة عند فرض قوانين التجنيد الإجباري وغيرها من الإجراءات العدائية.

وكان من بين المهاجرين الشيخ الونيسي، وقد كان ابن باديس يرغب في مرافقته كما ذكرنا من قبل.

من هنا، وجدت الأسر العريقة التي بقيت في الجزائر نفسها مضطرة إلى التكيف مع الوضع الجديد ومحاولة مهادنة المستعمر، حيث قدمت بعض التنازلات رغبةً في البقاء، بعدما أصبحت السيطرة الفعلية في يد المستعمر الذي استغل كل الفرص للسيطرة على الأملاك والمصالح. "فلذلك كانت الأسر الأهلية المالكة في وضع مدافعة لا هوادة فيها، قد حملتها القوانين الاستعمارية على أن تظل على يقظة وصبر وتهيؤ للتخلي عن كثير مما تتطلع إليه عين العدو، كل ذلك من أجل أن تستبقي حدا أدنى من الحرمة ولو صورية - وشيئا من أسباب الوقاية ضد الفناء"(عشراتي، 2010،ج1،ص204).

وحينما اختار ابن باديس طريق الإصلاح، دخل في صراع مباشر مع أهداف المستعمر، "ولن تضرب الدوائر الاستعمارية ابن باديس إلا من خلال ضرب الأسرة التي كانت تكفل له المنعة والغطاء المعنوي والمادي"(عشراتي، 2010،ج1،ص205).

وهذا الصدام كان يخيف كل أسرة عريقة، إذ إن ابن باديس، رغم دعم أسرته له، كان جزءاً من شبكة عائلية أكبر تضم أسرًا أخرى تشترك معه في المكانة والنسب. فوالدته، زهيرة، تنتمي إلى عائلة بن جلول، التي كانت تربطها علاقة قوية بأسرة ابن باديس عبر الأجيال. لكن أسرة بن جلول اختارت طريق الاندماج مع المستعمر، وكان الدكتور بن جلول، الذي عاش في زمن ابن باديس، من أبرز دعاة الاندماج. وهذا يعني أن هذا الفرع من الأسرة كان يتبنى مساراً مغايراً لمسار ابن باديس الإصلاحي، ولم يكن ليتفق أو يصمت على نهج يعارض المستعمر:" من هنا ندرك المأزق المعنوي والمادي الذي كان على ابن باديس أن يواجهه، إذ لم يكن ليخفى عليه أنه بتوجهه الإصلاحي كان يضع الأسرة على محك الامتحان" (عشراتي، 2010،ج1، ص206).

3. صراع ابن باديس مع الطرقية

كانت الحياة الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني تتميز بانتشار واسع للطرق الصوفية وزواياها، التي لعبت دورًا دينيًا بارزًا في نشر تعاليم الإسلام وتعزيز التربية والتعليم. كما أنها في بعض المراحل التاريخية أدت دورًا سياسيًا وعسكريًا هامًا.

إلا أنه في أواخر العهد العثماني، وبسبب حالة التخلف والجمود التي أصابت الأمة، انحرفت العديد من هذه الطرق عن منهجها السني الصحيح. فابتعدت عن تعاليم الإسلام، وتورطت في ممارسات أقرب إلى الوثنية، مثل تقديس الشيوخ، والاحتفال بالزردة، والتجمعات، والتبرك بالأولياء وزيارة قبورهم، مما لا يمت للإسلام بصلة.

ومع الاحتلال الفرنسي للجزائر، لعبت الطرق الصوفية دورًا بارزًا في قيادة المقاومات الشعبية والانتفاضات ضد المستعمر، حيث كان العديد من قادة المقاومة شيوخ زوايا أو منتسبين للطريقة. والملاحظ أن "عدد الطرق الصوفية الفاعلة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي بلغ أكثر من ستة وعشرين ، منها فقط حوالي أربعة في العهد الاستعماري، كالسنوسية والعليوية، والباقي كان موجودا منذ العهد العثماني"5 وتحولت بعض الطرق الصوفية الى وسائل بيد الاستعمار تنفذ اوامره واخرى مهمتها تخدير الشعب وشغله عن الجهاد حتى اشتهر عند بعضهم: "ناكل القوت ونستنى فالموت" (طالبي،1997،ج1،ص18).

ورغم الأدوار الثورية التي لعبها شيوخ الطرقية ، إلا أن هذه الحركات انهزمت في النهاية واستسلمت أمام القوة الاستعمارية حيث أدركت الإدارة الغاشمة أهمية الزوايا في توجيه المقاومة، فقامت بتبني سياسات هدفت إلى تحييدها.

فتراوحت هذه السياسات بين المراقبة والتشدد من جهة، وبين أسلوب الاستمالة والاحتواء من جهة أخرى. فعمدت إدارة الاحتلال إلى السيطرة على بعض الطرق عبر التحكم في مصادر دخلها ومنع جمع الأموال الخاصة بالزيارات والهبات الدينية، بينما استمالت بعض الطرق الأخرى كالتجانية والطيبية وبعض فروع الرحمانية، من خلال منح شيوخها الامتيازات والدعم، وإعطائهم وظائف ومناصب، بل وحتى منحهم أوسمة وتزويجهم بالفرنسيات.

نتيجة لهذه الاستمالات، أصبح بعض شيوخ الزوايا أكثر ميلاً لمهادنة السلطة الاستعمارية، وتراجع التمسك بتعاليم الإسلام الصارمة. هذا التحول جعل الزوايا تفقد وظيفتها التقليدية في حشد الثورات والمقاومة الشعبية، وتحولت من مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية ذات توجهات مستقلة إلى مؤسسات تدجين تعمل تحت تأثير المستعمر، بدلًا من أن تكون فضاء للمقاومة الثقافية والعسكرية، صارت تبرر الوضع القائم وتروج لأفكار استسلاميه ترتكز على الأقدار والمكتوب، وغرقت في الشعوذة والخرافات.

تحوّل خطاب الزوايا من الدعوة للجهاد والرباط إلى التعلق بالتمائم والخرافات والاستسلام، في وقت استمر المستعمر في تغذية هذه الاتجاهات المنحرفة ودعمها.

عملت السلطات الاستعمارية الفرنسية على محاصرة الإسلام وتجهيل الجزائريين به، وبدأت باتخاذ إجراءات تهدف إلى كبح مظاهر الدين الإسلامي. ووفقًا لما ذكره يكل ويلس، فإن هذا كان جزءًا من سياسة الضم الاستعمارية التي تعرضت لها الجزائر.

تجلت هذه السياسة في غلق المساجد، مصادرة الأوقاف، تهديم الزوايا، تجريف المقابر، ومنع تعليم القرآن، بالإضافة إلى اضطهاد الأئمة والمعلمين، وحظر الحج. ومع ذلك، لم تتمكن فرنسا من اقتلاع الإسلام من جذوره. ولذا، لجأت إلى استراتيجية أخرى تهدف إلى التحكم الرسمي في الدين.

فعملت على إنتاج رجال دين مدربين في مدارسها، ليتمكنوا من السيطرة على التعليم الديني في المساجد، بهدف إضعاف الإسلام من الداخل.

خلاصة هذا النهج كان تجهيل الجزائريين بالدين، بهدف إفراغهم من عقيدتهم وهويتهم، وبالتالي تسهيل إدماجهم في القيم الثقافية الفرنسية المسيحية المهزومة، عبر خطوات منظمة تهدف إلى السيطرة على المجتمع وتحويله إلى مجتمع تابع للمستعمر.

واجه الإمام عبد الحميد بن باديس الأوضاع الطرقية، خاصة من الناحية العلمية والاعتقادية، بشجاعة وحزم لا يُستهان بهما. كان يرفض المجاملات في قضايا الدين والعلم، ويبدي رأيه بوضوح وجرأة، حتى لو تعارض مع ما يؤمن به الآخرون أو كان ذلك الرأي غير شعبي، فابن باديس لم يكن يتردد في الوقوف ضد أي ممارسات أو معتقدات يراها منحرفة عن الطريق الصحيح. ومن الأمثلة البارزة على هذا موقفه من بعض المعتقدات المنسوبة إلى الطريقة التجانية، في رسالة حملت عنوان "جواب صريح"، تناول الإمام بن باديس بعض المسائل التي رآها خارجة عن التعاليم الدينية الصحيحة والمنسوبة إلى الطريقة التجانية, من بين هذه المسائل ما يتعلق بالاعتقاد بأن قراءة "صلاة الفاتح" أفضل من قراءة القرآن ستة آلاف مرة، وأن مؤسس الطريقة التجانية هو خاتم الأولياء، بالإضافة إلى الاعتقاد بأن أتباع هذه الطريقة مضمون لهم الجنة.

ناقش ابن باديس هذه المسائل بأسلوب علمي دقيق، حيث فندها بناءً على الأدلة الشرعية والمعايير التي تُعتمد في فهم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

بعد مناقشته العلمية، لم يتوقف عند حدود البيان بل هاجم تلك المعتقدات بشدة، واعتبرها انحرافات خطيرة. وقال إن من يندمج في الطريقة التجانية مع تصديق هذه العقائد يقع في ضلال كبير.

أما من يندمج فيها دون اعتناق هذه الأفكار، فقد رأى أن عليه إثمًا لأنه يعزز انتشار البدعة والضلال من خلال مجرد الانتماء إليها.

هذا الموقف يعكس طبيعة الإمام ابن باديس كإصلاحي صارم، إذ كان يرى أن سلامة العقيدة أساس نهضة الأمة، ولا يمكن أن يتحقق الإصلاح أو التقدم إلا إذا تنقى المجتمع من الخرافات والبدع التي تسيء للفهم الصحيح للإسلام، ولم يكن موقفه هذا مقتصرًا على التجانية فقط، بل امتد إلى كافة الطرق والممارسات التي كان يعتقد أنها تُسيء إلى الإسلام وتعوق الأمة عن النهوض والعودة إلى مجدها الحضاري. يقول ابن باديس :"لهذه وغيره نقول إن الطريقة التجانية ليست كسائر الطرق في بدعها، والمشاهد اليوم من أضرارها، ودعنا من حديث ماضيها بما فيه، بل هي طريقة موضوعة لهدم الإسلام تحت اسم الإسلام، فإن كتبها وأقوال أصحاب صاحبها مطبقة على هذه الأفكار وأكثر منها فلا تجد في كتبهم ما هو خالص منها حتى أن يكون هو الأصل وأن غيره مدسوس وانك لتجد هذه الكتب محل الرضى والقبول والتقديس عند جميع أتباع الطريقة عالمهم وجاهلهم " (طالبي،1997 ،ج3، ص147).

ولعل أكثر مقالاته جرأة هو مقاله بجريدة الشهاب والذي اتهم فيه الطريقة العليوية بعمل القاديانية في الجزائر، فعنون المقال بـ "العليوية بالجزائر أخت القاديانية بالهند وشبه الشيء منجذب إليه"
(مجلة الشهاب، العدد97،1927،ص85).

وقد حارب الإمام بشدة جميع مظاهر التعيش التي نشأت من التصوف، حيث شن حملة قوية ضد أولئك الذين اتخذوا التصوف والولاية سبيلاً للثراء وتكوين الثروات الشخصية.

فقد اعتبر أن هناك تغيرًا جوهريًا في الأوضاع الطرائقية الحالية مقارنة بما كانت عليه في الماضي، وشدد على أن بعض الأشخاص قد استغلوا هذه التغيرات لصالحهم، فحولوا التصوف إلى وسيلة للسيطرة على الناس، متخذين من استغلال عاطفة العامة وثقتهم مصدرًا للربح المادي. وكان يرى أن هذه الممارسات لا تنسجم مع القيم الروحية للتصوف، بل تحولت إلى تجارة رائجة على حساب الدين وأبناء المجتمع البسطاء فقال: "الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هناك من استغلال" (عمار طالبي، ج3،ص133).

أثارت مواقف ابن باديس غضب الطرقيين، فاحتدم شعورهم ضده، وقرروا اغتياله، حيث كان الحق الذي يقوله ثقيلًا عليهم، ولا يزال يوجهه إليهم وإلى أمثالهم، فاختاروا بعض أتباعهم لقتله في قسنطينة، في محاولة لضربه ضربة قاضية، لولا حماية الله ورعايته، ففي تلك اللحظة، التي كانت مليئة بالتوتر والتصاعد الروحي للانتقام، تجلت قوة الله في عزيمة المربي عبد الحميد، الذي كان أعزلًا، فتمكن من الإمساك بخصمه المهاجم، رغم تسلحه، وفي تلك اللحظات الصعبة، ملأ الله قلبه بالرحمة، مما جعل قلبه مطمئنًا، حتى في مواجهة الخطر الداهم وخاطب الحضور قائلا: " إياكم أن يمسه أحد منكم بسوء حتى تسلموه للمحافظة، ولولا هذه الكلمة لقطعوا الجاني إربا إربا" (الإبراهيمي، 1997، ج1،ص268).

هذه الخلافات العلنية أدت إلى الانشقاق في بيت جمعية العلماء المسلمين، حيث لجأ إلى تزوير عملية الانتخاب في نادي الترقي صيف 1932 وهو ما نقله الزاهري حين عبر عنه بـ "تغيير الانتخابات والاستيلاء على الجمعية، لكن المخطط فشل وكانت الغلبة للإصلاحيين داخل الجمعية" (بولحية،2015،ص145).

ويرى أحمد توفيق المدني أن سبب تأجيج الصراع بين الجمعية والطرقيين الصدامية المفرطة من طرف العقبي .."ويقود هذا الصراع الطيب العقبي الذي كان حادا تجاه الطرق الصوفية، وألقى محاضرات ضدهم، وضد رجالهم، ممعنا في محاربتهم وفي أذاهم وذلك خلاف صريح لمنهاج جمعية العلماء الأول" (المدني، 2013، ج2،ص224).

وتجدر الإشارة ان عبد الحميد علق على هذه المسألة من خلال مقالاته :"فروا من الجمعية وناصبوها العداء، واستعانوا عليها بالظلمة ورموها بالعظائم وجلبوا عليها من كل ناحية بكل ما كان عندهم من كيد، ذلك لأنهم وجدوا كثيرا من الآفات الاجتماعية التي تحاربها هم مصدرها، وهي عيشهم، ووجدوا قسما منها تغضب محاربته سادتهم وموالهم، وقد شاهدوا مظاهر الغضب بالفعل منهم، فما عارضتهم الجمعية ولا أبعدتهم ولكن هم أبعدوا أنفسهم "(طالبي، ج3،ص549).

في حين نجد أن اتباع التيار السلفي يعيبون على ابن باديس هذا المنحى والتوجه وحجتهم في ذلك انه نشأ نشأة طرقية وناصبهم اليد التي طالما كانت حانية عليه العداء فيرون :" أن عبد الحميد سلك مسلك المرحلية، وأخذ بالتدرج، والمرور على أطوار في الإصلاح والنقد، وأنه راعى في ذلك خطورة الوضع ونفوذ الطرقيين، ومركز والده وعائلته، وأراد ألا يصادم الشيوخ حتى يخلوا بينه وبين الأتباع" (سمراد،2018،ص96-97).

قاوم ابن باديس الطرق الضالة بكل جهد ولم يدخر في ذلك جهدا حيث "عملت الجمعية جاهدة على كشف زيفها وخداعها للناس ومناهجها المنافية للإسلام، "ويكشفون للناس تواطؤ بعض أولئك الرؤساء والشيوخ، مع حكام الاستعمار، أعداء الإسلام وخصوم كل نهضة ويقظة وتقدم" (رمضان، مجلة الثقافة،1984 ،ص362).

ولم تفتر عزيمة الشيخ في الدفاع عن مبادئه التي يؤمن بها وفي أهدافه التي وضعها نصب عينيه محاولة منه ازالة الغشاوة عن أعين المخدوعين ببعض مشايخ الطرق المنحرفة التي كانت تبعده عن التفكير الجاد للتخلص من براثن الاستعباد فيرى أن هذا الجاثوم الرابض على صدر الأمة إنما أطبق من جهتين داخلية وأخرى خارجية ، فأما الخارجية فجلية تمثلت في الاستعمار الفرنسي وأما الداخلية فخفية لكونها روحانية تجسدت في مشايخ الطرق المنحرفة عن مسارها الحق والمتاجرة بمصير شعبها في سبيل عرض من الدنيا زائل، فيقر الشيخ صراحة بسبب حربه التي شنها على هؤلاء وأمثالهم قائلا:" حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها علم الله - من بلاء على الأمة من الداخل والخارج، فعملنا على كشفها، وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب "(الجويلي، المجلة التاريخية المغربية، 1988،ص110).

4. صراع ابن باديس مع الإدارة الفرنسية

كانت الأهداف الحقيقية لموافقة السلطات الاستعمارية الفرنسية على إنشاء جمعية العلماء المسلمين كونها رأت في ذلك فرصة سانحة لخدمة مصالحها، فقد توقعت أن الجمعية ستجمع بين الفاعلين في الوسط الديني والثقافي في الجزائر، وبذلك تسهل عليها مراقبة هذا التيار الذي كان مترامي الأطراف فيصبح نصب عينيها في بوتقة واحدة تسهل عليها التحكم في النشاط الديني في الجزائر، مما يقلل من حاجتها لتكبد عناء مراقبة الجماعات الدينية بشكل منفصل، وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد الكريم "رأت السلطات الفرنسية بأن جمعية العلماء تعمل على جمع كل الاتجاهات الدينية من علماء مصلحين ورجال الدين من المحافظين التقليديين، مما يوفر عليها جهد عملية حراستها ومتابعتها وتسييرها حسب سياستها الاستعمارية المنتهجة في الجزائر" (بوصفصاف،2009ص207).

وقد ظهرت المواقف السياسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بشكل جلي في عام 1932، حينما بدأ أعضاؤها حملة توعوية واسعة تدعو إلى مقاطعة البضائع اليهودية ومعارضة منح الجنسية الفرنسية الجماعية للجزائريين، وقد تمكنت الجمعية من تحفيز الجزائريين على معارضة الإدارة الاستعمارية الفرنسية، مما ساهم في تعزيز روح العداء تجاهها، وظهر جليا تميز الجمعية في هذا السياق لأنها نشأت داخل الجزائر نفسها، على عكس العديد من الحركات السياسية التي كانت منبثقة عن فرنسا، وفي مدة وجيزة استطاعت الجمعية إنشاء 136 مدرسة حرة في مختلف مناطق الجزائر، مما عزز وجودها في جميع أنحاء الوطن، فحققت الجمعية بهذا الإنجاز نسبة كبيرة من أهدافها، وقعدت جزءاً مهماً من استراتيجيتها التي كانت تركز على الإصلاحات في المجالات الدينية والاجتماعية والثقافية.

لكن العلاقة بين الجمعية والإدارة الاستعمارية شهدت توتراً كبيراً في عام 1933، خاصة بعد صدور المنشور الشهير "ميشيل" بتاريخ 16 فبراير 1933، الذي ساهم في تصعيد التوتر حيث تعرضت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لعدة مضايقات وقيود من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية، حين قام الاحتلال بغلق عدد من المدارس الحرة التي أسستها الجمعية، وذلك بهدف الحد من تأثيراتها التعليمية والثقافية على الشعب الجزائري. كما تم توقيف عدة صحف هامة كانت

تديرها الجمعية، مثل "السنة" و"الصراط" و"الشريعة المطهرة"، في محاولة لإخماد الصوت الذي كان يروج للوعي الديني والسياسي لدى الجزائريين. ومما يدرك أن هذه الإجراءات الاستعمارية كانت جزءاً من مخطط أكبر يهدف إلى إجهاض الجهود التي بذلتها الجمعية في سبيل نشر الوعي السياسي وتفعيل النهضة الثقافية الإسلامية في الجزائر، وعلى الرغم من هذه الممارسات القمعية، واصل الشيخ عبد الحميد ورفاقه جهودهم الحثيثة لنشر الفكر الوطني والتعليمي، رافضين الاستسلام لضغوط الاحتلال.

وبحلول عام 1936، بدأت جمعية العلماء تبرز بشكل أكبر كقوة سياسية مؤثرة في الساحة الجزائرية، وذلك عندما دعا عبد الحميد بن باديس، الزعيم البارز في "فيدرالية المنتخبين المسلمين"، الدكتور بن جلول إلى عقد مؤتمر إسلامي بهدف مناقشة الإصلاحات السياسية اللازمة في الجزائر فتم تنظيم اجتماع تحضيري لهذا المؤتمر في 6 يونيو 1936، بمشاركة واسعة من أعضاء جمعية العلماء والحزب الشيوعي والمنتخبين المسلمين، كان الهدف الأساسي لهذه المبادرة هو تشكيل جبهة إسلامية موحدة في الجزائر على غرار الجبهة الشعبية في فرنسا، والتي كانت تمثل تحالفاً واسعاً بين مختلف القوى السياسية.

وقد أسفر هذا الاجتماع عن صياغة خمسة عشر مطلباً رئيسياً، جميعها كانت تدور حول القضايا الإصلاحية السياسية في الجزائر. كان من أبرزها إلغاء القوانين الاستثنائية التي كانت تقيد الحقوق الأساسية للجزائريين وتحافظ على الهيمنة الاستعمارية، بالإضافة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع الجزائري، وتأكيد فصل الدين عن الدولة، إضافة إلى المطالبة بحرية تامة في تدريس اللغة العربية، وضمان حرية الصحافة وحماية حقوق المواطنين في التعبير عن آرائهم بشكل غير مقيد.

وقد اختار عبد الحميد بن باديس أن يعبر عن مواقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بشكل دبلوماسي وواقعي مؤكدا على الهوية المستقلة للأمة الجزائرية، مشيراً إلى أنها أمة ذات وجود تاريخي طويل وعميق مثل أي أمة أخرى في العالم ذاكرا أن هذه الأمة الجزائرية لها تاريخ حافل بالأعمال الكبيرة التي تميزها عن غيرها من الأمم مشيرا أنها تتمتع بوحدتها الدينية واللغوية التي تجعلها قادرة على الحفاظ على هويتها الخاصة، فضلاً عن ثقافتها الفريدة التي تتضمن عوائدها وأخلاقها، بما فيها من جمال وعيوب، كما هو الحال مع كل الشعوب الأخرى.

وأوضح بن باديس أن الأمة الجزائرية الإسلامية ليست جزءاً من فرنسا ولن تكون كذلك، لأنها تختلف عن فرنسا في كل شيء من حيث اللغة، والأخلاق، والدين، والعنصر العرقي. بل إن الجزائر لها هويتها المستقلة التي تتحدد بحدودها الجغرافية الحالية، التي تمثل وطنها الأصلي المحدد الذي تنتمي إليه.

بدأ يختفي الأمل في تحقيق الإصلاحات التي كان الشيخ عبد الحميد يطمح إليها، حيث تصاعدت المواجهات مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، ما أسهم في تدهور الظروف التي كانت تعمل فيها الجمعية.

وكانت البداية مع سلسلة من الإجراءات القمعية لعل أبرزها قرار 8 مارس 1938 الذي ويضع قيودا ثقالا تحول دون ممارسة التعليم العربي "وهو قرار يضع قيودا ثقيلة تحول دون ممارسة التعليم العربي الحر.. مما أجبر ابن باديس على توجيه مناشير ورسائل إلى عدة هيآت ومنظمات للقيام بتحركات احتجاج" (العلوي،1985،ص162).

هذه الإجراءات الردعية اتخذتها السلطات الفرنسية في محاولة لإضعاف تأثير جمعية العلماء ومن أبرز هذه الإجراءات قرار منع الأناشيد الوطنية التي كانت تعتبر رمزاً من رموز الهوية الجزائرية، في خطوة تهدف إلى تقويض الروح الوطنية لدى الشعب الجزائري.

كما تم تقديم الشيخ الطيب العقبي للمحاكمة بتهمة التورط في اغتيال مفتي الجزائر بن دالي، حيث "قامت بتدبير اغتيال المفتي محمود كحول بأحد شوارع مدينة الجزائر بأمر من الأستاذ (ميو) مدير الشؤون الأهلية و نسب هذا الاغتيال لجمعية العلماء وكان هدفه من وراء ذلك تفكيك المؤتمر الإسلامي من جهة و النيل من الحركة الوطنية من جهة أخرى" (عباس،2005، ص165).

كما ذكر ذلك العلوي :"اغتيال مفتي الجزائر، وسجن الطيب العقبي ، ووجود جمعية العلماء في قفص الاتهام ، الشيء الذي جعلها تدافع عن نفسها كجمعية ، وعلى العقبي لتبرئة ساحته من التهمة الملفقة" (العلوي،1985،ص162).

كل هذه الاجراءات لم تثن من عزيمة الشيخ عبد الحميد" فقد ضحى قادتها بنعيم الحياة وزخرفها، مسخرين طاقاتهم في الوعظ والإرشاد مدافعين عن القيم الجزائرية التي تشكل هوية الجزائري و شخصيته، فكانت محاور برنامجها الإسلام الذي يجب العمل على إصلاح عقائده و صد العدوان عن معابده و أوقافه، و إحياء العربية في آدابها وتاريخها و التمسك بالوطنية الجامعة بين الإسلام و العربية" (Merad ،1999،pp.144،145).

ولم يكن هذا القمع موجها للجمعية وحدها بل هو اجراء عقابي ارادت من خلاله فرنسا فرض سطوتها على كل من يفكر في زحزحة مصالحها ،"لم يكن هذا التعطيل موجها الجمعية العلماء لوحدها بل هو أمر يهم الأمة الجزائرية" (الابراهيمي،1997،ج1،ص312).

ليصل الأمر لمنع صلاة العيد مما اضطر أنصار الجمعية إلى الاحتجاج بمظاهرة عارمة ناهز عدد المشاركين فيها ألفي مشارك معتبرين الأمر " مساسا بالحرية الدينية المعترف بها الجميع الأديان" (البصائر، ع 1937،93،ص2).

ومع بداية 1938، أصدرت الإدارة الفرنسية مرسوماً يقضي بفرض رقابة صارمة على جميع نوادي جمعية العلماء، لتجعل بذلك ابن باديس ومن خلاله الجمعية مضطرا للحصول على إذن من السلطات الفرنسية قبل القيام بأي نشاط ثقافي أو سياسي، ما أعطى الإدارة الاستعمارية القدرة على التحكم في أي تحرك قد تقوم به الجمعية في المستقبل.

هذا التضييق عطا وأضعف النوادي ماديا من خلال منع التراخيص ومحاصرة المداخيل والاشتراكات، ولا يخفى دور هذه النوادي في نشر الوعي بين الشباب وبث الروح الوطنية، "كما أن الاحتلال يرمي من وراء غلق هذه النوادي إلى هدف آخر بعيد هو منع التقاء أكبر عدد من المسؤولين عن الحركة الإصلاحية و التعليمية في هذه النوادي" (بلاسي، 1990،ص 110).

5. خاتمة

في الختام، يظهر بوضوح أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان أحد أبرز رواد الإصلاح في الجزائر، حيث تمكن بحكمته ورؤيته الثاقبة من التصدي للتحديات الدينية والسياسية والاجتماعية التي واجهته حيث كان هدفه الأساسي بث الروح في الهوية الوطنية الجزائرية، معتمداً على أسس علمية ودينية قوية, ويمكن استخلاص أبرز ما تناولته هذه الدراسة في مايلي:

- جعل الشيخ التعليم محوراً رئيسياً في مشروعه، و سعى لتحرير العقل الجزائري من الاستلاب الفكري والثقافي للاستدمار.
- نجح الإمام في تقليص نفوذ الطرق الصوفية التي تعاونت مع الاستعمار، مما عزز دور الدين كرافد أساس للهوية الوطنية.
- تعامل بحنكة مع المعوقات العائلية التي كان يتوقع البعض أنها ستعيق مسيرته الإصلاحية.
- حرص على التفاعل والتواصل مع جميع فئات المجتمع، وعمل على توحيد القوى الوطنية المختلفة للتصدي للاستعمار.
- كانت استراتيجياته في مواجهة الاستعمار قائمة على التعليم والنشاط الثقافي، كأدوات فعّالة للحفاظ على الهوية الوطنية الجزائرية.

إن تأثير الشيخ عبد الحميد بن باديس ما زال ملموساً حتى اليوم في الساحة الثقافية والسياسية الجزائرية. فقد ساهم بشكل كبير في بناء شخصية وطنية مستقلة، رغم كل المصاعب التي واجهها. كانت أفكاره تتجاوز كونها مجرد جهود إصلاحية، بل شكّلت ثورة ثقافية حقيقية هدفت إلى استعادة الهوية العربية الإسلامية في وجه محاولات الاحتلال لطمسها.

ورغم مرور عقود على وفاته، فإن مشروعه الإصلاحي لا يزال يُعد مرجعاً مهماً في الفكر الوطني الجزائري، ويستمر في إلهام الأجيال الجديدة لاعتناق قيم الاستقلال، وتعزيز التعليم، والحفاظ على الهوية الوطنية في مواجهة كل محاولات الهيمنة الخارجية.

6. المصادر و المراجع:

1- عشراتي، سليمان.(2010).ابن باديس مخاضات العبور إلى العدوة الأخرى. الجزائر: دار الغرب.

2- بو الصفصاف، عبد الكريم.(2009) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945). الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع

3- طالبي، عمار.(1997). آثار ابن باديس. الجزائر: طبع الشركة الجزائرية.

4- مجلة الشهاب، العدد **97**، **17** ذو القعدة **1345** هـ **20** ماي **1927**.

5-الإبراهيمي، أحمد طالب.(1997). آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. لبنان: دار الغرب الإسلامي.

6- بولحية، نور الدين .(2015) .جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما. الجزائر: دار علي بن زيد.

7- المدني، أحمد توفيق .(2013). حياة وكفاح. الجزائر: دار البصائر الجديدة.

8- سمراد، سمير.(2018). مواقف المصلحين الجزائريين من رسوم المتصوفين وأوضاع الطرقيين. الجزائر: مكتبة الأدب الجزائري.

9- رمضان، محمد الصالح.(سبتمبر/أكتوبر1984). "جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي و الثقافي". مجلة الثقافة، السنة الرابعة عشر، عدد 83. ص 362.

10- الجويلي، نصر.(1988) . "جمعية العلماء المسلمين بين الدين والسياسة". المجلة التاريخية المغربية، السنة الخامسة عشر، العدد 49/50، جوان 1988، تونس، ص110

11- العلوي، محمد الطيب.(1985). مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1954. الجزائر: دار البعث.

12- عباس، فرحات.(2005) .ليل الاستعمار، ترجمة ابو بكر رحال .الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية .

13-Merad، Ali.(1999). Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940، essai d'histoire religieuse et sociale. Alger: les éditions El-hikma.

14- البصائر، عدد 93 ، 31 ديسمبر 1937 .

15- بلاسي، نبيل أحمد.(1990). الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.